الفصل الخامس

الاتجاه الصراعي

1 ـ الجذور التاريخية للفكر الصراعي وتطوره.

2 ـ ابن خلدون: نظرية التغيير الاجتماعي.

3 ـ كارل ماركس: البعد الاجتماعي للمادية التاريخيّة.

4 ـ رالف دهرندروف: سوسيولوجيا الصراع والحتمية السياسية.

5 ـ خلاصة ونتائج.

1 ـ الجذور التاريخيّة
للفكر الصراعي وتطورهِ

تاريخيّاً، يعود الفكرَ الصّراعي إلى العالم العربي ابن خلدون من خلال أفكاره الاجتماعيّة والسياسية والاقتصادية التي طرحها في رؤيته للمجتمع الإنساني وتحليله لموضوع «العصبيّة» و«السلطة السياسية»، وبالذات نظريته الدائرية التي ترى أن عملية التغير الاجتماعي تسير بشكل دائري ثم تنتهي حيث بدأت، ثم تعيد الدورة من جديد.

ولا يمكن «أن نذعي بأن ابن خلدون كان يتصور الطبقة في عصرنا الحاضر، وبالصفة الواضحة التي ظهرت عليها ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر. ولم تخوله النماذج المجتمعيّة التي كان قد درسها إلاّ من خلال مشاهدته للصراع بين طبقتين وهما البدو الفقراء والإقطاعية السلطانية»[1].

وثمة آراء متباينة في تحديد تاريخ نظرية الصراع الاجتماعي التقليدية، وهل تبدأ أو تنتهي بأفكار كارل ماركس أم تبدأ بماركس ثم يتلاحق نموها وتغيرها عند غيره من علماء الاجتماع في العالم الرأسمالي، وإن تاريخ نظرية الصراع التقليدية يمتد لفترة طويلة تبدأ من 1818 وتنتهي في عام 1944، حيث اهتم بدراسة الصراع مجموعة من العلماء المتعارضين في الفكر. إلاّ أن ثمة عناصر مشتركة تجمع بينهم، فهم في الأغلب قد نشأوا في طبقات فقيرة

(1) د. عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981) ص 360.

كادحة، وثانياً فهم تلقوا وعرفوا مبادىء وأفكار عصر التنوير[1].

وتعتبر كتابات سان سيمون أول محاولة لإبراز المضامين الاشتراكية، والتي كانت انعكاساً للظروف الاقتصادية والاجتماعية والمناخ الفكري العام في بداية القرن التاسع عشر، حيث الدعوة إلى إعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية على أسس جديدة نتيجة فشل الفكر البرجوازي في مواجهة التحولات الجذرية للمجتمع الأوربي.

وقد برزت الاشتراكية كعقيدة قبل أن تكون نظرية سياسة أو اقتصادية. كما أنها كانت في بداياتها الأولى تتصف بالطابع الخيالي. ولذلك أطلق على أنصارها إسم أصحاب النظريات «الاشتراكيّة الخياليّة». وفي مقدمة هؤلاء سان سيمون وشارل فوربيه اللذان قدما مشروعات فكرية خيالية كإصلاح الطبيعة البشرية، وإلغاء الإرث والأديان، وإقامة مستعمرات مشتركة من العائلات. وكرد فعل لفشل هذا الاتجاه الاشتراكي الخيالي ظهرت «الإشتراكية الفوضوية» التي تزعمها المفكر برودون الذي كان أحد قادة ثورة عمال النسيج في مدينة ليون بفرنسا عام 1830. وقد اشتهرت هذه المدرسة بمغالاتها في المطالبة بالحرية المطلقة، وإلغاء النظم الاقتصادية والإدارية، وإلى تقويض دعائم الدولة، والدعوة إلى ضرورة معيشة الأفراد أحراراً بلا دولة ولا دين.

ونتيجة لفشل أفكار هذه المدرسة ظهر اتجاه جديد يعرف «بالإصلاح الاجتماعي» القائم على البحث الاجتماعي، حيث كان العالم بلاي من المفكرين الأوائل الذين قادوا هذا المذهب. وكانت فكرته تدعو إلى ضرورة البدء بإصلاح نظم الأسرة، وتدخل الدولة في عملية الإصلاح الاجتماعي، والدعوة إلى تنظيم النقابات وجمعيات المنتجين والمستهلكين ونظام المصارف التعاونيّة.

---

(1) جراهام كينلوتش، تمهيد في النظرية الاجتماعيّة ـ تطورها ونماذجها الكبرى، ترجمة د. محمد سعيد فرح (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعيّة، 1990) ص 117.

ويرى الكثير من الباحثين[1] أن هذه الاتجاهات تشكل قصوراً في تحديد نظرية محدّدة عن التغيير الاجتماعي، حيث لم تفهم المجتمع في ضوء العلاقات القائمة بين التنظيم الاقتصادي والنسق السياسي والاجتماعي، بقدر ما تكون «إشتراكية يوتوبيّة» كما وصفها أنجلز، لأنها تؤسس حتمية الاشتراكية على تغييرات الطبيعة البشرية.

وكان طبيعيّاً فشل هذه الاتجاهات، وظهور آراء اشتراكية علميّة كان يمثلها إنجلز وماركس حيث ارتكزت هذه الآراء على المادية التاريخية الجدلية. وخلال فترة امتدت من أربعينات إلى خمسينات القرن التاسع عشر ظهرت الماركسيّة كأول نظرية اجتماعيّة توحد ما بين التحليل العلمي وبين مصالح طبقة اجتماعية خاصة هي طبقة البروليتاريا (العمالية) الصناعيّة.

وباختصار فإن جذور أي صراع اجتماعي ترتبط بعناصر كثيرة منها الإنسان والبيئة الاجتماعية، وطبيعة الظروف الاجتماعية والسياسيّة، والتحولات الكبرى في تاريخ الإنسان، وتصارع الأفكار والثقافات والقيم. ولا يمكن حدوث الصراع إلاّ بوجود هذه العناصر وغيرها.

ومنطقياً، يختلف مفهوم الصراع من مرحلة إلى مرحلة أخرى في تاريخ البشرية، وتختلف الرؤى والأفكار من مفكر إلى آخر، باختلاف طبيعة التأثير

---

(1) انظر للتفاصيل حول الاتجاه الاشتراكي وتطوره والاتجاه الصراعي:
أ ـ د. حسن الظاهر، دراسات في الفكر السياسي (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1992).
ب ـ آلان سوينجوود، تاريخ النظرية في علم الاجتماع، ترجمة السيد عبد العاطي السيد (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1996).
جـ ـ أيان كريب، النظرية الاجتماعيّة، ترجمة د. محمد حسين علوم، عالم المعرفة، العدد 244 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 1999).

وجذوره، وتأثرهم بالمحيط الاجتماعي الذي تبرز فيه ظاهرة الصراع، وإلى الفلسفة الاجتماعية التي يعتقدونها، والأيديولوجية السياسيّة التي يتبنونها. ولذلك نجد أن «الصراع عند جورج زيمل يبدأ بين الأفراد ولدى لويس كوسر يبدأ بين الجماعات الاجتماعية الصغيرة، وعند ابن خلدون يبدأ بين القبائل والعشائر، وعند رالف دارندروف يبدأ بين التنظيمات الاجتماعيّة»[1].

وهناك من العلماء من ينظر للصراع من زاوية أخرى، فالبعض يعتقد بأن «الصراع الاجتماعي يمثل حالة مرضيّة غير طبيعية مثل دوركهايم وسبنسر وتارد، ومنهم من يعتبره حالة طبيعية في المجتمع، مثل ڤيبر وكولي وميد وبارسونز، والبعض الآخر يعتقد أنه ظاهرة اجتماعيّة موروثة في جميع العلائق الاجتماعيّة، حتى بين أفراد المجتمع أمثال كمبلوڤتش وفولد، بل إن بعضهم يرى فيه فوائد إيجابية للمجتمع مثل لويس كوسر، بينما يعتقد دارندروف أن الصراع عملية مستمرة ذات محور دايلكتيكي في المجتمع»[2].

ولذلك نرى تبايناً في الاتجاهات الأيديولوجية داخل مدخل الصراع، وذلك حسب نمط التفسير الذي يقتدى به؛ فهناك نماذج للصراع تكون قائمة على مبادىء ثورية، كالنموذج الاشتراكي عند ماركس وبارك، حيث الصراع يحدث نتيجة العوامل الأيكولوجية والاقتصادية. وهناك نماذج محافظة في صياغتها وأهدافها واتجاهها العام كما هو موجود عند بارتيووڤيبلن، حيث أن أسباب الصراع تعود إلى القيم والأفكار.

وعلى كل حال، كان من الطبيعي أن تتطور النظرية الاجتماعية من ناحية المضمون تبعاً للتطور الحاصل في المجتمعات، واختلافات الرؤية والتحليل للعلماء. وهذا ما يفسر ظاهرة التجديد والإضافات الفكرية والمنهجيّة على

---

(1) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مصدر سابق، ص 243.
(2) المصدر السابق، ص 25 ـ 26.

النظرية الصراعيّة في مراحلها المختلفة. فإذا كان المنظور الصراعي في علم الاجتماع الحديث يشتق جوهره وأفكاره من أعمال ماركس فإن الحقيقة العلمية تستدعي الاعتراف بمساهمات المنظرين المحدثين أمثال رالف دارندورف وأفكاره الصراعيّة الجديدة.

2 ـ إبن خلدون
نظرية الدورة الاجتماعية

إمتاز ابن خلدون عن علماء عصره، بنظرته الشمولية إلى محيطه، من خلال اهتمامه بالكليات والجزئيات، بعمق فكر، وقوة نظر، حيث كرس جهوده على تحليل الظروف المادية والمجتمعيّة التي يعيشها الأفراد والجماعات في حياتهم اليوميّة، فاتسمت ملاحظاته بالعمق والعفوية معاً. وقد انبعثت خبراته من تجارب حياة مليئة بنشاطات فكرية وإدارية ودبلوماسية وسياسيّة، وبتجارب حياتية متناقضة بين قساوة العزلة ومرارة الحرمان والغربة وترف البلاطات.

تنحدر أسرته من العرب اليمنيين، حيث غادر جده خالد جنوب الجزيرة العربية في القرن الثاني للهجرة (التاسع الميلادي) ليستقر بإسبانيا المسلمة. وتكونت من سلالة خاله أسرة مثقفة تنتمي إلى الوسط الأرستقراطي الإشبيلي. وخلال القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) هاجرت إلى تونس، وهناك ولد أبو زيد عبد الرحمٰن ابن خلدون عام 733هـ/ 1332م[1].

وقد نشأ في أسرة عريقة ونابهة وبيت علم ورياسة، فنشأ في مهد هذا التراث الذي تلقاه عن أسرته، ودرج في حجر أبيه فكان معلمه الأول، وقرأ القرآن الكريم وحفظه وتفقه في القراءات السبع، ودرس شيئاً من التفسير

(1) د. محمد عزيز الحيابي، ابن خلدون معاصراً، ترجمة د. فاطمة الجامعي الحيابي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، 1984) ص 17.

والحديث والفقه والنحو واللغة على أشهر أساتذة تونس، التي كانت يومئذ مركز العلوم والآداب في بلاد المغرب[1].

وقد اشتهر مؤلف «المقدمة» بين الناس وفي بيئات العلم والأدب باسم «ابن خلدون»، وهو إسم أحد أجداده القدماء. وقد توفي في القاهرة سنة 808هـ/ 1406م. وعاش بذلك مدة لا تقل عن ثلاثة أرباع القرن إلاّ سنة واحدة. كانت هذه السنوات الطويلة زاخرة بنشاط خارق للعادة، وحيوية متفجرة وإنتاج أصيل مبتكر. وقد كان نشاطه متعدّد الجوانب، شمل ميادين الإدارة والسياسة، والخطابة، والقضاء، وطلب العلم والبحث، والتدريس والتأليف. فقد وصل أحياناً إلى أعلى المناصب في عهود ملوك عديدين ودول، مرات كثيرة، لكنه في الوقت نفسه تعرض إلى محن ونكبات متنوعة مرات كثرة. لقد تنعم بنعم القصور لكنه ذاق مرارة الاعتقال والسجن ولم يتمتع ابن خلدون، خلال عمره الطويل، بحياة الهدوء بمعناها الصحيح إلاّ نحو أربعة أعوام. وذلك بين أوائل سنة 1375 وأواخر سنة 1378، عندما اعتزل الحياة العامة واختلى بنفسه بعيداً عن شواغل المدن[2]، وذلك في مقاطعة وهران بالجزائر حيث كتب مؤلفه الشهير كتاب «العبر»، والمسمى «بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ويقع في سبعة مجلدات ضخمة، ويتألف هذا الكتاب الضخم من ثلاثة كتب فصلت عن بعضها في ما بعد. فمقدمة الكتاب، إستقلت عنه، وعرفت فيها بعد باسم «المقدمة»، كما استقل عنه أيضاً كتاب كان قد وضعه ابن خلدون في نهاية كتابه الضخم ويقصد

---

(1) محمد عبد الله عنان، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري (القاهرة: مؤسسة مختار للنشر والتوزيع 1991) ص 14 ـ 20.

(2) د. حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني ـ قواعد المنهج (بيروت: دار النهضة العربية، 1981) ص 6 ـ 7.

بذلك كتاب «التعريف»[1].

ويرى الكثير من العلماء أن ما يميز ابن خلدون عن غيره من المؤرخين، هو حرصه الكبير بالبحث عن العلل والأسباب، لما قد وقع من وقائع أدت إلى نشأة الدول وبداية العمران وظواهره، أي أنه كان مولعاً بالبحث عن العلل الكامنة، والتفتيش عن الأسباب الخفيّة والظاهرة. وهاتان عمليتان تحتاجان إلى أن يكون الباحث مستوعباً لأكبر قسط من المعرفة، وأن يكون قادراً على اختزانها والاحتفاظ بها، ثم الإفصاح عنها مرتبة ومصنفة، بحيث يسهل على العقل أن يلمح العلاقات التي تربط الحقائق بعضها إلى بعض، سواء كان ذلك عن تشابه واتفاق أو تباين واختلاف.

النظرية الاجتماعية عند ابن خلدون

يعتبر هذا المفكر العربي أول من تنبه إلى ضرورة قيام علم جديد هو علم العمران والاجتماع الإنساني، وأنه حدّد موضوع هذا العلم، حيث الحياة الاجتماعيّة وكل ما يعرض فيها من حضارة مادية وعقلية. فدرس أعمال الناس وكيفيّة تحصيلهم لأقواتهم، وسبب تنازعهم، وإنشائهم كجماعات تخضع لأحكام وعادات وقوانين متباينة. كما حاول أن يحلّل الضرورة الاجتماعيّة ومظاهر تطورها من حياة البدو بما تمتاز به من عدم استقرار وترحال إلى حياة التحضر التي تمتاز بالتمدن والاستقرار.

وكانت رؤيته للحياة والمجتمع قائمة على المنهج التاريخي العلمي القائم على الملاحظة والمشاهدة والوصف والتحليل والنقد ومحاولة التفسير. وهذا يعني بأن ابن خلدون لم ينشىء علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري فقط،

---

(1) زينب الخضيري، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون (القاهرة ـ دار الثقافة للطبع والنشر 1979) ص 54.

بل إنه قد وضع أيضاً لهذا العلم قواعد منهج أصيلة وطرائق بحث مبتكرة.

فقد استعمل في دراسته الاجتماعيّة منهجاً علمياً قائماً على ست قواعد أساسية وهي الشك والتمحيص، والواقعيّة الاجتماعيّة المتشخصة بموادها، وتحكيم أصول العادة وطبيعة العمران، والقياس بالشاهد والغائب، والسير والتقسيم، والحيطة عند التعميم.

ولا بد من الاعتراف بأن ابن خلدون كان موسوعيّاً في تناوله للموضوعات الاجتماعية التي تحمل في ثناياها كثيراً من القضايا والمسائل والموضوعات التي أبرزتها النظريات الاجتماعيّة الحديثة. فقد تناول هذا العالم موضوعات عديدة[1]، واكتشف الكثير من القوانين الاجتماعية الهامة في موضوعات علم الاجتماع.

ولعلّ أبرز نظرياته الاجتماعيّة هي نظريته عن العصبيّة وأثرها في تكوين الدول وانحلالها، وهي نظرية قائمة على الصراع الاجتماعي؛ أي أنها تأخذ بمبدأ الدورة الاجتماعية في عملية التغير الاجتماعي، حيث أن المجتمع الإنساني يمر في دائرة تبدأ بالميلاد وتسير نحو النضج والاكتمال ثم تتجه إلى الشيخوخة، لتعود مرة أخرى للرقي والتقدم.

خلاصة أفكار نظريته الدائريّة

يمكن تلخيص أفكار نظريته الدائرية بالنقاط الآتية:

1 ـ إن التاريخ البشري يسير وفق خطة معينة. فحوادثه مرتبطة بعضها ببعض

---

(1) للتفاصيل عن الموضوعات الاجتماعيّة لابن خلدون أنظر كتابنا: د. ياس خضير البياتي، الفكر الاجتماعي ـ من عصر الحكمة إلى عصر العلم، (ليبيا ـ الجامعة المفتوحة، 1999) ص 159 ـ 179

وأن المجتمع البشري شأنه شأن الفرد الذي يمر بمراحل منذ ولادته وحتى وفاته، وكذلك يحدث للدول، وأن مسيرة المجتمع تغييرية دائرية، تبدأ وتنتهي في النقطة التي كانت قد بدأت منها. وأن هذه الظاهرة ـ دورة المجتمع ـ مستقلة عن الإرادة الإنسانية[1].

2 ـ أن المجتمع يمر بثلاث أطوار وهي:

أ ـ طور الشباب والنمو: فيه تكون للحمة العصبية الدور الحاسم ويمتاز بديناميّة وحماسة.

ب ـ طور النضج والتنظيم: فتتقوى السيادة، وتتمركز السلطة، لكن ما تلبث السلطة الحاكمة أن تتخلى عن المساواة التي تميز بها العمران البدوي، وتستبد بالملك، وتنفرد بالامتيازات حتى يبدأ التنافر يتسرب بين أهل العصبيّة. إنها المرحلة الجدليّة للاستبداد والمطلقية، وعندها تتولد الصراعات الداخليّة المنهكة.

جـ ـ طور الشيخوخة: حيث اشتداد الفتن والتطاحنات. فيحل بها الهرم، ويكتسبها مرض مزمن فتركن إلى الرفاه والإسراف والتبذير، فتنحل أواصر العصبية، وهذا يفضي، لا محالة، بكل أجهزة الدولة إلى التدهور ثم الموت[2].

3 ـ العصبيّة عند ابن خلدون تشكل المصدر الأساسي للصراع الاجتماعي. فالعصبية عنده هي القرابة التي تستند إلى وحدة النسب، وهي كذلك الحلف والولاء، وهي القاعدة الأساسية للقوة والسلطة. وهي تأخذ أكثر من معنى:

---

(1) د. محمد الدقسي، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، الطبعة الثانية (الأردن: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1996) ص 89.

(2) د. محمد عزيز الحبابي، ابن خلدون معاصراً، مصدر سبق ذكره، ص 96 ـ 97.

أ ـ العصبيّة تؤدي إلى الاتحاد والالتحام بين أفراد النسب الواحد لأنها تحملهم على التعاضد والتناصر لدفع العدوان وتحقيق المطالب.

ب ـ العصبيّة مصدراً للصراع، إذ يمكن أن يظهر الصراع على عدّة مستويات، داخل الجماعة الواحدة أو بين الجماعات المختلفة أيّ بين القبلية الواحدة أو بين القبائل المختلفة. وكذلك يحدث الصراع بين الأمصار المختلفة (بين البدو والحضر).

جـ ـ العصبيّة تؤدي إلى تحقيق الملك على اعتبار أنها تتمحور بالأساس حول السلطة والسيادة والتوسع في الحكم[1].

4 ـ يعتقد ابن خلدون بأن العوامل الديناميكية التي تؤدي بالمجتمع القبلي إلى التطور هي العصبيّة والفضيلة والدعوة الدينيّة. كما أشار إلى العوامل التي تسرع التقدم الاجتماعي وهي البيئة وكثافة السكان وعدالة الدولة.

5 ـ أكد على أن الحضارة هي نهاية العمران البشري، وذلك من خلال نظريته المتعلقة بمراحل تطور الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف المراحل الخمس وهي:

أ ـ مرحلة النشأة (البداوة) والاستيلاء على الملك حيث يقتصر فيها الأفراد على الضروري في أحوالهم. وتتميز هذه المرحلة بوجود العصبيّة القبليّة.

ب ـ مرحلة الملك والاستبداد: وفيها ينتقل المجتمع من حالة البداوة إلى حالة الحضارة، وتبدأ العصبيّة بالضعف لدى الحكام، وتتركز السلطة بيد فرد أو أسرة أو فئة.

جـ ـ مرحلة الترف والنعيم: وفيها ينسى الأفراد حياة البداوة، ويفقدون فيها

---

(1) السريحلي الهادي صالح داعوب، نقد نظريات الصراع الغربيّة من منظور النظرية العالميّة الثالثة، رسالة ماجستير ـ كليّة الآداب والعلوم، يفرن ـ ليبيا 2000. ص 30 ـ 31.

العصبية تماماً، ويركن الحكام إلى الدعة والترف، ويستفيدون من الدولة أكثر مما يفيدون.

د - مرحلة التنوع والمسالمة والتقليد للحكام السابقين: أي اقتناع صاحب الدولة بما بنى أولوه مقلداً للماضين من سلفه.

هـ - طور الإسراف والتبذير: حيث يصيب الدولة الهرم والانقراض[1].

6 - يعتقد ابن خلدون بأن عمر الدولة يعمر ثلاثة أجيال أي مائة وعشرين عاماً، ولكل جيل سمات اجتماعية ونفسية وخلقية. فالجيل الأول ينشىء الدولة، والثاني يتحول من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف بفعل تأثير الملك. أما الجيل الثالث فإنه ينهي الدولة.

نقد نظرية ابن خلدون

على ضوء ما سبق، يمكن الإشارة إلى أهم الملاحظات النقدية لفكرة الصراع عند ابن خلدون:

1 - تأكيد ابن خلدون على أن مصدر الصراع هو العصبية بالدرجة الأولى فيه الكثير من الإطلاق والعموميّة. فهناك مجتمعات تختفي فيها ظاهرة العصبية، ولهذا لا يمكن تعميم هذه الفكرة على جميع المجتمعات. وربما تكون هذه أقرب إلى مجتمعاتنا العربيّة، حيث تكون العصبية القبليّة هي مصدر القوة والسلطة.

2 - لا يمكن القطع نهائياً بفكرة ابن خلدون حول نظريته الدائرية. فهناك مجتمعات إنسانية لم تمر بالمراحل الثلاث التي ذكرها في تحليله لمسيرة نمو المجتمعات واضمحلالها.

---

(1) د. محمد الدقـي، التغير الاجتماعي، مصدر سبق ذكره، ص 92 ـ 93.

3 ـ حسم الصراع لا يحل عن طريق القوة وحسب، فهناك حلول علميّة يمكن من خلالها إدارة الصراع الاجتماعي بشكل يؤمن استقرار المجتمع. وليس الصحيح، كما يقول ابن خلدون، بأن نهاية الصراع تكمن في انتصار العصبية الأكثر قوة.

3 ـ كارل ماركس
البعد الاجتماعي للمادية التاريخية

ولد ماركس (1818 ـ 1883) في مدينة تريف بألمانيا، وهو ابن محام يهودي. درس التاريخ والفلسفة والقانون، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام 1841. مارس العمل الصحفي، وشارك في الأعمال الثورية السياسية بما في ذلك تكوين الرابطة الدولية للعمال، ومؤتمر عصبة الشيوعيين. وقد قاوم الضغوط السياسية والاقتصادية التي شهدتها ألمانيا في عصره، مما دفع الحكومة الألمانية إلى طرده من البلاد، فذهب إلى فرنسا وبلجيكا بعد حصوله على اللجوء السياسي هناك، ولكن سرعان ما طردته الحكومتان الفرنسية والبلجيكية عندما علِمت بأفكاره. فذهب بعد ذلك إلى إنكلترا حيث مكث فيها طيلة حياته إلى أن توفي عام 1883 في مدينة لندن متأثراً بالصدمات النفسية التي أصابته نتيجة لوفاة زوجته ومعظم أولاده[1].

كانت حياة ماركس تعكس التأثيرات الفكرية التي تدخلت في صياغة نسقه الفكري ابتداءً بتأثره بالفلسفة الألمانية أثناء دراسته الجامعية وخاصة بهيجل وفيورباخ، وتأثره بالأفكار الاشتراكية وخاصة أفكار سان سيمون أثناء وجوده في باريس. وكذلك اهتمامه بأفكار ريكاردو وآدم سميث في مجال الاقتصاد السياسي. وكل هذه الأحداث والاتجاهات الفكرية كانت تشكل المصدر الأساسي لفكر ماركس ونظرياته الاجتماعية والاقتصادية.

---

(1) Marx and Engles: The Eyes of their Contemporaries, Moscow, Progress publishers hers, 1978, p. 13.

لقد أخذ ماركس من «فخته» الأفكار المثالية، ومن «هيجل» القوانين الشمولية التي ترسم المسارات التاريخية لحركة المجتمعات، كما أخذ منه مذهب الديالكتيك أو الجدل وتفسيره للتاريخ[1]. كما استفاد ماركس من المفكرين الاقتصاديين الإنكليز كآدم سميث وريكاردو وجون ستيورت ميل في موضوعات عناصر الإنتاج وقوى التوزيع والاستهلاك والقيمة وفائضها، التجارة الداخلية والخارجية، والنقود ووظائفها.

كما أخذ ماركس أيضاً من فكر وأدب الثورة الفرنسية ومفكريها وقادتها خصوصاً ميرابو وفولتير وروسو بما يتعلق بفكرة تبديل نظام الحكم وهياكل المجتمع، وأفكار الحرية والعدالة الاجتماعية، وأسلوب العنف الثوري في مواجهة أعداء الطبقة العاملة.

وباختصار فقد انعكست أفكار هؤلاء العلماء واتجاهاتهم الفكرية على الكثير من مضامين كتبه التي ألفها عبر حياته الأكاديمية والفكرية. ومنها كتاب نقد في الاقتصاد السياسي، وبؤس الفلسفة، والأيديولوجية الألمانية، ورأس المال، والثورة الاشتراكية، وبيان الحزب الشيوعي، حيث كانت هذه المؤلفات وغيرها تعكس نظريته في الصراع، وتعكس حقيقة عصره وتناقضاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

نظرية ماركس الاجتماعية

يعتبر كارل ماركس من الصراعيين الماديين بالمفهوم الاجتماعي، لأنه ينظر إلى العلائق الاجتماعية بين أعضاء المجتمع على أنها قائمة على معطيات وإفرازات العامل المادي. وقد فسر المجتمع من خلال نوعين من الفهم:

---

(1) فرانسوا شاتليه، هيجل، ترجمة جورج صدقي (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1976) ص 194 ـ 199.

الأول: الفهم التاريخي من خلال المادية التاريخية.

الثاني: الفهم الاقتصادي من حيث إن الاقتصاد هو أساس المجتمع وأن كل الظواهر الأخرى عبارة عن تركيبات فوقية.

ويمكن القول بأن جدل الديالكتيك وخاصة عند هيجل هو الذي وضع أسس نظرية الصراع الاجتماعي عند ماركس. فقد حول ماركس هذا الديالكتيك من صورته العقليّة الفكرية إلى صورته المادية التاريخية، أي بدل من صراع الأفكار إلى صراع الطبقات الاجتماعية بالمفهوم المادي الاقتصادي - الاجتماعي للطبقة وليس بالمفهوم الثقافي أو النفسي[1].

وإذا كان هناك من يعتقد بأن الأساس الفلسفي للفكر الاجتماعي عند ماركس هو في جوهره هيجلي من حيث مصدره وطابعه العام، إلا أن هناك فروقات جوهرية. فالفكر الاجتماعي الهيجلي مثالي جدلي، بينما الفكر الاجتماعي الماركسي هو فكر مادي جدلي، يفسر العالم الحقيقي كعملية تطور وحركة يبدأ بالمادة.

وباختصار فقد قدم كارل ماركس أفكاراً جديدة لعلم الاجتماع ونظريته أبرزها[2]:

1 - إعطاء مضمون جديد لتحليل البناء الاقتصادي للمجتمع من خلال سياق التطور التاريخي للعمل الإنساني، باعتباره علاقة أولية بين الإنسان والطبيعة، وتصنيف المجتمعات على أساس نظمها الاقتصادية.

2 - فكرته الجديدة القائمة على تحليل البناء الفوقي الأيديولوجي وعلاقته بما

---

(1) إسماعيل علي سعد، الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعيّة، 1993).

(2) د. علي الحوات، النظرية الاجتماعية، مصدر سبق ذكره. ص 151.

سماه الأساس الحقيقي للمجتمع: أسلوب الإنتاج والعلاقات الاجتماعيّة. وكذلك فكرته بأن الوجود الاجتماعي للإنسان هو الذي يحدّد وعيه وشعوره.

3 ـ دراسته للثورات الاجتماعية، ولموضوع التفسير الاجتماعي، وما أحدثته هذه الثورات من أثر في التنظيمات الاجتماعية الإنسانية.

يمكن تقسيم أبرز موضوعات نظريته الاجتماعية الصراعيّة إلى ثلاثة محاور رئيسية هي كالآتي:

أولاً: الأساس المادي للمجتمع وحتمية التغيير الاجتماعي

يعتبر تأكيد الماركسيّة على الأساس المادي للمجتمع مناقضاً للفكر الهيجلي القائم على الأساس العقلي للوجود. فالاقتصاد، برأي ماركس، أو بالتحديد الإنتاج هو الذي يشكل الأساس الحقيقي للبناء الاقتصادي للمجتمع.

فالمجتمع مهما كانت مرحلته التاريخية يعتمد على الأساس الاقتصادي، أي على نمط الإنتاج الذي ينقسم بدوره إلى مكونين أساسيين هما: قوى الإنتاج التي تعني مجموع الطاقات المادية والبشرية التي تتوظف في العملية الإنتاجية كوسائل العمل وأدوات الإنتاج (كالآلات والأجهزة والمباني، إضافة إلى الطاقة البشرية). أما المكون الثاني فهو علاقات الإنتاج التي تعني الارتباطات الأساسيّة التي يشغلها الناس بعضهم مع بعض من أجل تنفيذ النشاط الاقتصادي (ملكية الإنتاج، وأوضاع الطبقات، الطبقات، التفاعل الطبقي، ومكانة الرمز الاجتماعي، وتوزيع المنافع المادية.. الخ). وخلال العملية الإنتاجية يقيّم الناس في ما بينهم بعض العلاقات الضرورية وهي «علاقات الإنتاج» التي يتبلور حولها البناء الاقتصادي للمجتمع. حيث يتألف من تركيبتين هما:

1 ـ البناء الأسفل الأساسي، وهو البناء الاقتصادي، حيث يتكون من العوامل الاقتصادية والمادية (الموارد الطبيعية والبشرية).

2 ـ البناء الأعلى، حيث يتألف من الأفكار والمبادىء والنظم السياسيّة والقانون والدين والفلسفة والفن والآداب والعلوم والمعايير الخلقيّة[1].

ومن خلال هذه النظرة استطاع ماركس أن يقسم المجتمع الرأسمالي إلى قسمين رئيسيين: الأول مالك للإنتاج ووسائله، والثاني فاقد لها. وهذا يعني تبلور نوعين من الأنظمة الاجتماعية الرئيسية يهدفان إلى إشباع حاجاتها وطموحهما من خلال كفاحها وتصارعها في ما بينهما. فالصراع الاجتماعي عند ماركس لا يحدث فجأة، بل بشكل متكرّر، تتراكم فيهِ هذه الصراعات إلى أن تولد تغيراً شاملاً وكاملاً للبناء الاجتماعي. وهذا الصراع يعود إلى «عدم تكافؤ وتوازن المصادر الاقتصادية داخل المجتمع، مما يولد طبقة اجتماعية مالكة للمصادر الاقتصادية ويجعلها تصبح طبقة حاكمة متسلطة، ويجعل أخرى فاقدة للمصادر الاقتصادية والسلطوية داخل النظام الاجتماعي العام»[2] وبشكل عام فإن ماركس يعتقد أن تغيير البناء الاجتماعي، ودخول المجتمع في مرحلة حضارية تاريخية يعود إلى التغيير في البناء المادي لسبب أو لآخر. وهذا من شأنه أن يؤثر على البناء الفوقي، أي بعبارة أخرى إن الجوانب المادية هي التي تؤثر على الأفكار والقيم والعادات والقوانين والأعراف الاجتماعيّة. ومع ذلك، فإن ماركس لا يلغي العوامل الفكرية تماماً، وإنما يرىٰ بأن دراسة هذه العوامل ينبغي أن تكون في ضوء العوامل المادية والاجتماعية. وبمعنى آخر فإنه يؤمن بوجود علاقة بين البنائين، وهي علاقة تبادليّة من ناحية التأثير.

---

(1) محمد جاسم، الماركسية وعلم الاجتماع، مجلة عالم الفكر، العدد 3، الكويت 1971، ص 155.

(2) د. أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي، مصدر سابق، ص 541 ـ 542.

فالتطور الاجتماعي يقوم على أساس تاريخي شبه ميكانيكي، حيث يلعب الإنسان فيه دوراً مهماً من خلال جهوده وتحديه للظروف المختلفة، وبهذا يكون الإنسان هو صانع تاريخه[1].

ثانياً: الاغتراب والصراع الاجتماعي:

يحدد ماركس أربع خصائص أساسيّة للاغتراب هي:

إغتراب الإنسان عن الطبيعة، واغترابه عن نفسهِ، واغترابه عن نوعه أو بني جنسه، واغترابه عن غيرهِ.

ولم يكن مفهوم الاغتراب الذي طرحه ماركس جديداً، فقد طرحه قبله عدد من المفكرين أبرزهم ماكس ڤيبر وإميل دوركهايم. وقد استعمل ماركس إصطلاح الإغتراب الاجتماعي في نظريته العامة، عندما أراد تفسير عوامل المنافسة والصراع والتناقض بين طبقات المجتمع.

والاغتراب بالمفهوم الماركسي هو ظاهرة اجتماعيّة يشعر فيها الإنسان بكونه مغترباً وبعيداً عن الشيء الذي أوجده وخدمه وضحى من أجله، حيث يشعر العامل بأنه مغترب عن رب العمل، أي شعورهِ بوجود حواجز نفسيّة واجتماعيّة تفصله عنه، كما يشعر بالاغتراب عن السلعة التي أنتجها وخلقها وصرف الجهود وبذل الأتعاب عليها طالما أنها لا تعود عليهِ بل تعود إلى رب العمل الذي يمتلك وسائل الإنتاج. واغتراب العامل لا يقتصر على ابتعاده عن رب العمل والسلعة التي أنتجها فحسب بل يتعدى ذلك إلى اغترابه عن جهوده أيضاً؛ فالعامل يشعر بأنه لا يملك نفسه ولا جهده، وأن جهوده تباع وتشترى في سوق العمل لقاء أجر زهيد[2].

---

(1) زينب محمد زهري، د. قباري محمد إسماعيل، أساسيات علم الاجتماع الاقتصادي (طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1985) ص 165.

(2) د. إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع الاقتصادي (بغداد: دار الحكمة، 1995). ص 46.

ويرى ماركس بأن الرأسمالية أدت إلى اغتراب الإنسانية عن نشاطها، أي عن نتائج عملها (الاغتراب عن الأشياء)، وبالتالي حولت نتائج العمل إلى موضوع أو شيء غريب. فخضوع العامل لقوانين الإنتاج الرأسمالي للسلع يؤدى حتماً إلى إفقاره. وبمعنى آخر فإن ماركس يريد أن يقول بأن نمو النظام الرأسمالي كنظام يؤمن باحتكار أصحاب رؤوس الأموال لوسائل الإنتاج وموارد الثروة في صورة رأس المال، خلق ظواهر سلبيّة، كانتشار مبدأ المنفعة واستثمار النقود وتحول المجتمع إلى مجتمع طبقي، مما أدى إلى تفاقم مشكلات الإنتاج، وتزايد اغتراب العامل.

وهكذا أصبحت نظرية ماركس عن الاغتراب أكثر أمبيريقية حددت بطريقة تاريخية وأسست بطريقة سوسيولوجية في بناءات وتركيبات اقتصادية. ففي كتاباته المبكرة أشار ماركس إلى «قوة لا إنسانية» تسيطر على الحياة الاجتماعيّة، وتعمل على إحباط القوى الإنسانية الأساسية وتحولها إلى أشياء. وفي كتابه «رأس المال» أبقى ماركس على مفهوم «الذات المغتربة» ولكنه وضعه داخل إطار نظري حدّدت فيه الرأسمالية على أنها نسق موضوعي، كما حدّد فيه الاغتراب في ضوء الحركة الداخلية والمتناقضة للإنتاج الرأسمالي، بمعنى إدراج الاغتراب في عملية تحول قوى العمل إلى سلعة. وقد كان من أهم النتائج المترتبة على هذا الاتجاه تزايد أهمية الأيديولوجية بالنسبة لتطور المجتمع الرأسمالي والإبقاء عليه[1].

وقد أضاف ماركس إسهاماً جديداً في مجال علم الاجتماع، وهو إدخال مفهوم الأيديولوجيا في عملية الاغتراب. فالفرد هو الذي يخلق الدولة لتنظيم أموره، وفض النزاع بينه وبين الآخرين. ولكن سرعان ما يعتقد بأنه مغترب عنها، وذلك للهوة التي تفصل بينه وبين الدولة، فيبدأ بالخوف منها والابتعاد

(1) آلان سونيجورد، تاريخ النظرية في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 94.

عنها شيئاً فشيئاً، حيث يعتبرها قوة تقيّد عمله وفعاليته وحركته، مما يشعره بأنه مغترب عنها.

ثالثاً: الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي.

ترتكز فكرته حول الطبقات الاجتماعية على مبدأ أن تاريخ البشرية هو تاريخ الصراع الطبقي الاجتماعي، أي أن المجتمعات القديمة والاقطاعية والرأسمالية كانت طبقيّة بمفهومها الاجتماعي، ووجودها يرجع إلى العامل المادي. فهناك طبقتان اجتماعيتان في حالة صراع، طبقة تمتلك وسائل الإنتاج وطبقة لا تمتلك وسائل الإنتاج بل تمتلك الجهود البشرية التي تقدمها للطبقة المالكة لوسائل الإنتاج أو الطبقة الحاكمة.

ويرى ماركس بأن ظاهرة الطبقات الاجتماعية من أهم الظواهر المؤدية للصراع والثورة والتحول الحضاري والاجتماعي، حيث قسم المجتمع الرأسمالي إلى طبقة برجوازية تملك وسائل الإنتاج وتوجه العملية الإنتاجية وتسيطر على الإدارة والأرباح، وطبقة بروليتارية أو طبقة العمال الذين يقومون بالعمل الفعلي ولا يحصلون على حقوقهم المادية التي تناسب جهدهم وإنتاجهم. ومادام الأمر كذلك فإن علاقات الإنتاج سوف تنعكس على النظم الاجتماعية بحيث تصبح العلاقات بينها منسجمة مع نمط الإنتاج الرأسمالي وما يترتب عليه، ولهذا من المتوقع أن تخضع الدولة والمؤسسات الدينية وكل ما يقيمه المجتمع من نظم وبناءات عليا، لسائر النظم الاجتماعية، وفي إطار مصالح البرجوازية التي تعمل على إبقاء طبقة العمال كطبقة خاضعة أو في مرتبة التبعيّة للطبقة البرجوازية[1].

ويعتقد ماركس بأن العلاقات الاجتماعية التي تفرضها الصناعة الرأسمالية

---

(1) د. زينب محمد زهري، ود. قباري محمد إسماعيل، ص 166 ـ 167.

تحرم الطبقة العاملة من فرص إشباع حاجاتهم النفسية في العمل، وقد أطلق ماركس على ذلك «اغتراب العمل الإنساني». ويرى أيضاً بأن الطبقة الاجتماعية لا يمكن أن تكون طبقة إلاّ عندما تكون واعية بمصالحها، وتنتظم من أجل تحقيق مصالحها من خلال مؤسساتها وتنظيماتها الخاصة.

ولعل ما تقوم به الذات الإنسانية من دور إيجابي وخلاّق يمثل محور ارتكاز نظرياته عن تكوين الطبقة والصراع والوعي الطبقي.

خلاصة أفكار ماركس

(1) إختار ماركس العوامل الاقتصادية كمسبّب أساسي لعملية التطور، حيث يعتقد أن الإدراك المادي للتاريخ، يستخلص الظواهر الاجتماعية وتطورها. لا من الفكر المطلق، ولا من إرادة الفرد، بل من الظروف الواقعيّة لنشأة الناس العملية، ومن الإنتاج المادي الذي شكل مراحل تطوره، والتشكيلات الاجتماعية المحدّدة تاريخياً[1].

(2) النظرية الماركسية حاولت تفسير التغير الاجتماعي في ضوء عمليات داخلية، حيث استخدمت هذه النظرية مجموعة من نماذج الفعل والتفاعل على المستوى الاقتصادي لتوضح المنطق المستمر لتطور الرأسمالية وغيرها من النظم[2].

(3) أسلوب أو طريقة الإنتاج هو الذي يحدّد الخصيصة العامة أو الصفة العالية لكل المؤسسات السياسية والاجتماعية والروحية، وهذه المؤسسات هي التي تحدّد الوعيّ الإنساني. فالوعي والإحساس إنما هو انعكاس للواقع الاجتماعي المادي.

---

(1) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مصدر سابق، ص 20 ـ 21.

(2) غينادي أوسيبوف، أصول علم الاجتماع، ترجمة سليم توما (الإتحاد السوفييتي: دار التقدم 1995) ص 6.

(4) إعتبر ماركس المجتمع الإنساني وحدة الدراسة والتحليل. ويرى بأن فهم ماركس المجتمع وتفسير تطوره يقوم على افتراض أن القاعدة الاقتصادية هي أساس تشكيل البناء الاجتماعي وتطوره. كما أبرز أهمية الطبقة الاجتماعية كوحدة أساسيّة لفهم البناء الاجتماعي وتطوره.

(5) إن البناء الاقتصادي، السفلي أو التحتي، يعتبر دافعاً أساسياً للتغيير الاجتماعي. ويتكون بنائياً من قوى الإنتاج والعلاقات المترتبة على طبيعة هذه القوى، ويتكون البناء الفوقي من النظم الدينية والسياسية وغيرها من ملامح النسق الاجتماعي التي تعبّر عن طبيعة البناء الاقتصادي السفلي أو تتغير وفقاً له.

(6) الإغتراب بمفهوم ماركس، هو ظاهرة اجتماعيّة نتيجة استغلال النظام الرأسمالي لطبقة العمال. أي شعور العامل بالاغتراب عن رب العمل والسلعة واغترابه عن جهوده أيضاً، حيث يشعر العامل في النظام الرأسمالي بأنه لا يملك نفسه ولا جهده، وأن جهوده تباع وتشترى في سوق العمل لقاء أجر زهيد.

(7) يؤكد ماركس أن الصراع الطبقي يحتدم في المجتمع الرأسمالي ويتزايد بتقدم المعرفة التكنولوجيّة، وبتزايد الفوارق الطبيعية، والصراع على المصالح المتناقضة من الطبقات الاجتماعيّة. ولذلك فإن الطبقة البرجوازية في النظام الرأسمالي التي تملك وسائل الإنتاج هي القادرة على استغلال طبقة العمال لصالحها.

(8) يربط ماركس بين ملكية وسائل الإنتاج والقدرة على تشكيل ثقافة المجتمع والأيديولوجيا. فالذين يملكون مصادر القوة يوجهون الأيديولوجية والوعي بما يثبت ويخدم مصالحهم وأوضاعهم.

4 ـ رالف داهرندروف
سوسيولوجيا الصراع

ولد داهرندروف في هامبورج بألمانيا سنة 1929، وهو عالم اجتماع من أصل ألماني، حيث تلقى دروسه الشخصية في جامعة هامبورج وحصل على درجة الدكتوراه مرتين. المرة الأولى عام 1952، والمرة الثانية عام 1956 من جامعة لندن. شغل وظيفة أستاذ كرسي علم الاجتماع في عدد من الجامعات الألمانية، كما عمل في مدرسة الاقتصاد العليا بجامعة لندن من 1952 ـ 1954، وجامعة ستانفورد من 1957 ـ 1958. وأهم أعماله المنشورة بالإنجليزية «الطبقة والصراع الطبقي في المجتمع الصناعي» عام 1959[1]. وقد احتوىٰ هذا الكتاب على أهم أفكاره ونظرياته في موضوع التغيير والصراع والعنف في البناء الاجتماعي.

الاتجاهات العامة لنظرية دهرندروف الاجتماعية

إنطلقت دراسة الصراع عند داهرندروف من نقد مرير للوظيفيّة ولنظرية النسق والتوازن. وكذلك لفكرة الصراع وظيفياً داخل النسق عند كوزر.

وإذا كانت أهميته تأتي من تصوراته النقديّة للنظريات الوظيفيّة وتحليلها برؤية جديدة، فإن أهميته أيضاً مرتبطة بمساهماته في تعميق النظرية الماركسيّة

(1) د. محمد عاطف غيث، د. محمد علي محمد، دراسات في التنمية والتخطيط الاجتماعي (بيروت: دار العلم للملايين. ب. ت) ص 63 ـ 64.

وتجديدها، والمنطلقة من فكرة أن الصراع كامن في كل النظم، وهو مصدر التغيير في هذه النظم. إلاّ أن داهرندروف جدّدها بحيث اتخذت مساراً غير ماركسي، فاستبدل علاقات الإنتاج في المفهوم الماركسي بعلاقات السلطة[1].

وقد انطلق في بلورة فكرة الصراعي من أربع قواعد[2]:

1 ـ نقده لليوتوبيا التي تؤمن بانسجام واتساق الحياة الاجتماعيّة، وعدم وجود صراعات بين أقسام المجتمع. وهو يرى بأنه لا يمكن لليوتوبيا أن تنمو وتتطور خارج الحقائق الاجتماعيّة المعروفة. فالمجتمعات تحاول ربط الماضي بالحاضر والمستقبل وترفد حياتها الاجتماعية بالقيم والعادات والأعراف والنواميس الاجتماعيّة. كما أنها تحفل بالصراعات والتغيرات الجزئية والكلية.

2 ـ أوجد تشابهاً كبيراً بين النظام الاجتماعي الذي يؤكد عليه البنيويون الوظيفيون واليوتوبيا. فالإثنان ـ بنظر دارندروف ـ غير موجودين على الصعيد الواقعي، وإنما هما من نسج الخيال والتصور.

3 ـ نظرته إلى الحياة الاجتماعية التي تحمل وجهين أو حقيقتين: الأولى تمثل الانسجام والاتساق والتكامل والثبوت والتوازن، والثانية تمثل الحركة والصراع والتغيير.

4 ـ تأثره بفكر ماركس الصراعي الذي حاول في هذا التأثر أن يمزجه مع تأثره الأول والثاني، أيّ من خلال نقده لليوتوبيا والنظام الاجتماعي، والخروج بنظرة جدليّة ماركسيّة جديدة تعطي نفساً جديداً للروح الصراعيّة في علم الاجتماع. وقد استخدم النظرة الصراعيّة عند ماركس لدراسة النظام الاجتماعي.

---

(1) جراهام كينلوتش، مصدر سابق، ص 261.

(2) د. محمد زايد، مصدر سابق، ص 177.

ويعتقد داهرندروف بأن الأبنية الاجتماعية تستطيع أن تخلق من داخلها العناصر التي تغيرها أو تدمرها، ومن ثم يمكنها تحديد الجماعات والعمليات التي تدخل في إحداث هذه الظاهرة نظرياً وتجريبياً. وهذا يعني بأن نظرية القهر هي المدخل الأساسي في صنع نظرية عن الصراع الاجتماعي والتغيير الاجتماعي[1].

كما ينظر داهرندروف إلى الصراع من زاوية جديدة، فهو يرفض الصراع الطبقي برؤية اقتصادية أو وظيفية أو تكاملية أو اندماجية وإنما ينبغي النظر إلى المجتمع على أنه صراع في المحيط السياسي[2].

النظام الاجتماعي ونموذج الصراع والتغيير

يتألف النظام الاجتماعي - برأي داهرندروف - من مجموعة أدوار اجتماعية موزعة على تدرج متسلسل من المراكز التنظيمية، حيث يحمل كل مركز مسؤوليات وواجبات تعكس درجة ونوع سلطته، ولكل من هذه المراكز أدوار تنظيمية تعكس تباين واختلاف ممارسة نفوذها وسلطتها. بمعنى آخر هناك أدوار تنظيمية متميزة ذات درجات سلطوية متباينة. فهناك أدوار تتمتع بسلطة ونفوذ عال لها صفة الإلزام والقسر في ممارستها للسلطة على الأدوار الأولى منها على التدرج التنظيمي، والأخرى تتمتع بسلطة ونفوذ واطىء، تخضع للأدوار الأعلى منها وتلتزم بتوجيهاتها. وهذا النوع من التدرج التنظيمي يكتسب صفة الشرعية والقانونية في وجوده داخل التنظيم. وهذه التشكيلة من

---

(1) د. معن خليل عمر، ثنائيات علم الاجتماع، (عمان دار الشروق للنشر والتوزيع 2001). ص 67 ـ 68.

(2) Dahrendorf, R.: Class and Class Conflict in an industrial Society, Routledge and Kegan Paul, London. 1959. p. 99.

الأدوار التنظيمية تشكل بداية الصراع عند داهرندروف أيّ من خلال نوع ودرجة السلطة التي يحملها الفرد في ممارسة دورهِ التنظيمي داخل النظام الاجتماعي[1].

فالصراع الطبقي، عند داهرندروف، ينشأ بين أولئك الذين يقبضون على مقاليد السلطة من ناحية، وأولئك الذين لا يملكون إلاّ الخضوع لهذهِ السلطة. وهنا يمكننا أن نتوقع وجود الصراع الطبقي في أيّ نظام اجتماعي (كالصناعي والديني والسياسي. . . الخ). وقد ذهب داهرندروف إلى أن الطابع التفككي أو الثوري للصراع الطبقي يتوقف على مدى انتشار وانتقال الصراع من نظام معين إلى نظام معين إلى نظام آخر[2].

وعلى هذا الأساس، فإن نموذج الصراع عند داهرندروف هو الحل الجوهري من الخروج من عالم اليوتوبيا الذي هو من خصائص النسق الاجتماعي، ذلك لأن هذا النموذج يمتاز بكفاءته الأمبيريقيّة، وقدرته الكبيرة على دراسة التغير.

فالصراع هو عملية مستمرة داخل المجتمع، وهو القوة الكبيرة التي تصاحب عملية التغير، ووجود النظام الاجتماعي يعود إلى الصراعات الديالكتيكية المستمرة في مكونات البناء الاجتماعي التي تعمل على تصعيد أو إعاقة درجة الصراع بين القوى المتنازعة.

وقد ميّز داهرندروف بين ثلاثة أنواع من الظروف الاجتماعية التي تساعد على تفجير الصراع بين الجماعات المستغِلة والمستغلة وهي[3]:

---

(1) Ibid., p. 321.

(2) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مصدر سابق، ص 30 ـ 31.

(3) جون ركس، مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1973) ص 187.

1 - ظروف تنظيميّة، وهي التي تساعد على تحويل الجماعات المستمرة إلى جماعات بارزة ودفعها إلى الدخول في عملية الصراع مباشرة.

2 - ظروف عملية الصراع، التي تحدّد درجة وقوة الصراع القائم بين الجماعات المشتركة في العمليّة.

3 - ظروف تغيير البناء، التي تحدد سرعة وعمق واتساع تغيير البناء الاجتماعي ولا بد من القول أيضاً، بأن تبنيه لنظرية الصراع لا يعني تخليه عن نموذج التوازن. فالمجتمع في نظره له وجهان متساويان: الأول يكشف عن الاستقرار والتآلف والاتفاق العام. والثاني يكشف عن التغيّر والصراع والقوة. ولذلك ليس «بمقدورنا تصور الواقع تصوراً حقيقياً إلاّ إذا وضعنا أيدينا على التفاعل الجدلي بين الثبات والتغيير والتكامل والصراع»[1].

خلاصة أفكار داهرندروف

1 - يعترف بالصراع كظاهرة اجتماعيّة ولكنها تتم وتقع في المحيط السياسي وليس في الميدان الاقتصادي، وذلك من خلال صراع وتنافس الجماعات والأفراد في ما بينهم من أجل مراكز السلطة والنفوذ وليس من أجل الثروة الاقتصادية.

2 - نظر إلى المجتمع باعتباره مجموعة من الروابط والجماعات المتنافسة والتي تستند على ضبط ملزم، وتنظمها مجموعة من المصالح الكامنة المتعارضة. ولذا شرح ارتباط هذه المصالح بالصراع الاجتماعي في إطار أوضاع معينة من التنظيم والشدة والعنف، تلك الأوضاع التي تعتمد كلية على الموقف.

---

(1) د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مصدر سابق، ص 36.

3 - إن نموذج الصراع هو الحل الوحيد للخروج من اليوتوبيا لمعرفة الحقائق المثيرة للاهتمام في الواقع الاجتماعي.

4 - قامت أفكاره على أساس نظرية القهر في المجتمع، وهي المدخل الأساسي في صنع نظرية الصراع الاجتماعي والتغيير الاجتماعي.

5 ـ خلاصة ونتائج

يمكن تلخيص الفصل الخامس بالنقاط الآتية:

أولاً: تاريخياً، تعود جذور الفكر الصراعي إلى العالم العربي ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري، والتي تجسدت في نظرياته الاجتماعيّة موضوع التغيير الاجتماعي والتحديث، وما قدمه من نظرية جديدة حول المراحل التاريخيّة التي يمر بها المجتمع الإنساني، واستخلاصه قانوناً أساسياً يحكم المجتمعات الإنسانية وهو قانون الأطوار الثلاثة للمجتمع: طور النشأة والتكوين، ثم طور النضج والاكتمال، وأخيراً طور الهرم أو الشيخوخة، ومن ثم يقوم على أنقاضه مجتمع آخر يسير في المراحل نفسها التي سار فيها المجتمع السابق. ولعل من أبرز أفكاره:

1 ـ العصبيّة قاعدة أساسيّة للقوة والسلطة.

2 ـ العصبيّة هي مصدر الصراع الاجتماعي.

3 ـ إن حسم الصراع يكمن في انتصار العصبية.

4 ـ يقسم ابن خلدون حركة التاريخ إلى خمس مراحل تشكل في مجموعها ثلاثة أجيال هي عمر الدولة أو المجتمع.

ثانياً: حاول ماركس أن يحلّل الرأسمالية كنظام سياسي واجتماعي من خلال رؤيته الأيديولوجية، مما صبغ نظريته الاجتماعية بموضوع الصراع والطبقيّة والاغتراب. وقد نقد الرأسمالية كمجتمع طبقي يكبت القوى الخلاقة والكامنة للإنسان، وتدمر إنسانية الإنسان من خلال استغلاله وقهره اقتصادياً واجتماعياً. ولذلك كانت نظريته الاجتماعيّة تتناول موضوع الإنسان في

المجتمع الرأسمالي حيث تتضمن الأفكار الآتية:

1 ـ إن الأيديولوجيا تمثل انعكاساً للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة في مجتمع معين. لذلك فإن الأساس المادي لهذا المجتمع يخلق بالضرورة بناءً فوقياً مؤلفاً من أفكار وقيم ومثل ونظم.

2 ـ إعتمد على مبدأ الديالكتيك في تفسير التغير الاجتماعي، أي تفسيراً تاريخياً مادياً.

3 ـ إعتبر ظاهرة الطبقات الاجتماعية من أهم الظواهر المؤدية للصراع والثورة والتحول الحضاري والاجتماعي.

4 ـ الوجود الاجتماعي هو الذي يحدّد وعي الإنسان.

5 ـ إستخدم ماركس مفهوم الاغتراب لوصف ونقد الظروف الاجتماعية التي يعيش في ظلها الإنسان وخاصة طبقة العمال في المجتمع الصناعي، حين أدت الرأسمالية إلى اغتراب الإنسانية عن نشاطها أو عن نتائج عملها.

ثالثاً: كانت النظرية الماركسيّة الصراعيّة مثار جدل شديد داخل الدوائر السوسيولوجيّة المعاصرة، ومثار انتقاد لاذع لأفكارها المادية البحتة. ومن أبرز الانتقادات:

1 ـ لا يمكن تعميم نظرية ماركس الطبقيّة على المجتمعات الرأسمالية المعاصرة وذلك بسبب التطورات الكبيرة التي حدثت للمجتمعات المعاصرة، وخاصة الصناعيّة الحديثة، من ناحية التنظيم والطبقيّة والخدمات الاجتماعيّة والدخل والثروة والحراك الاجتماعي. ويستدلون على ذلك باختفاء الثنائية الطبقيّة والوعي الطبقي لدى العمال في المجتمعات الصناعية الحديثة.

2 ـ لا يمكن إرجاع الصراعيّة إلى العامل الاقتصادي ونظام الملكيّة فقط، وإنما هناك عوامل حضارية وثقافية واجتماعية ودينية لها دور مهم في

مكونات البناء الاجتماعي. وبدون شك فإن النزعة الحتمية المادية لماركس قد أثرت على نظريته من ناحية المنهج والموضوعية.

3 - التغير الاجتماعي لا يحدث دائماً بسبب الصراع الاجتماعي، دائماً هناك عوامل أخرى حضارية وثقافية واجتماعية وتكنولوجية وسياسية تؤدي إلى إحداث التغيير الاجتماعي في المجتمعات.

رابعاً: تأثر داهرندروف بفكر ماركس الصراعي، حيث تضمنت نظريته الاجتماعية موضوعات عديدة أبرزها الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي، والنظام الاجتماعي ودراسته من قبل البناء الوظيفي، إضافة إلى فقده لليوتوبيا. ومن أبرز أفكاره هي:

1 - نظر إلى المجتمع باعتباره مجموعة من الروابط والجماعات المتنافسة والتي تستند إلى الضوابط الملزمة، وتنظمها مجموعة من المصالح الكامنة المتعارضة.

2 - الصراع الاجتماعي يقع في المحيط السياسي وليس نتيجة عوامل اقتصادية كما يرى ماركس.

3 - الصراع هو نسق ديناميكي يتكون من أجزاء مترابطة. والصراع الطبقي ينبغي النظر إليه من خلال نظرية القهر.

خامساً: يمكن إيجاز أبرز الانتقادات التي وجهت لنظريته الاجتماعية وهي تتمثل في الآتي:

1 - تجاهله للتراث الاجتماعي والتاريخي الهائل في تحليله للصراع الطبقي. فالصراع ينتقل من نظام إلى نظام آخر؛ فالنظم التي يظن أنها مستقلة إنما هي ترتبط في ما بينها ارتباط الوسائل بالغايات.

2 - إهماله الصراعات الخارجية، أي الصراعات التي تحدث بين التنظيمات الاجتماعية، وتركيزه على الصراعات داخل التنظيم الواحد، حيث جعل

منها باروميتراً لتحديد شدة وحدة الصراعات الخارجية.

3 ـ أهمل الصراعات الطبقيّة والقوميّة والعنصرية وغيرها التي تحدث داخل المجتمع الرأسمالي الصناعي.

سادساً: يمكن الخروج باستنتاجات جوهرية لمسار الاتجاه الصراعي من خلال الأفكار الآتية:

1 ـ الفكر الاجتماعي الصراعي هو انعكاس لواقع المجتمعات الإنسانية، وما يحدث فيها من صراعات مستمرة تأخذ أشكالاً متعدّدة، سياسية واجتماعيّة وفكرية وبيروقراطية... الخ. ومبدأ هذا الفكر قائم على الرؤية الصراعية وجدليتها وليس جانب التكامل والتضامن، فهو إذن فكر صراعي لا تكاملي.

2 ـ الفكر الاجتماعي الصراعي يؤمن بعملية التغيير الاجتماعي، مادام هذا التغيير مرتبطاً بالصراع. ومادام هذا الصراع مستمراً فإن التغيير لا يتوقف حتى إذا توقف نوع من الصراعات داخل المجتمع.

3 ـ ينظر إلى الحياة الاجتماعية نظرة صراعيّة قائمة على عناصر جوهرية، فالمصالح والتعارض والعداء والصراع والتماسك. واعتبار أن الأنساق الاجتماعية غير متناغمة وتميل إلى التغيير.

4 ـ الاتجاه الصراعي اعتمد في كتاباته على منهجين في طرق بحثه وهما: طريقة المقارنة وطريقة الملاحظة.

نماذج أسئلة الفصل الخامس

س1 : وضح الجذور التاريخية والفكرية للاتجاه الصراعي وتأثيره على تطور علم الاجتماع ونظريته.

س2 : يختلف مفهوم الصراع من مرحلة إلى مرحلة أخرى في تاريخ البشرية. كيف ينظر علماء الاتجاه الصراعي إلى عملية الصراع من خلال اختلاف الرؤية الاجتماعية والإيديولوجية لهؤلاء العلماء في تفسيرهم لأنواع ومفاهيم الصراع؟.

س3 : أكتب عن دور ومكانة كارل ماركس في النظرية الاجتماعية الصراعيّة من خلال الموضوعات الآتية:

(أ) الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي.

(ب) الأساس المادي للمجتمع وحتمية التغيير الاجتماعي.

س4 : كيف ينظر ماركس لمفهوم الاغتراب في المجتمعات الرأسمالية.

س5 : أضاف ماركس أفكاراً جديدة لعلم الاجتماع ونظريته. حدّد هذه الإضافات بنقاط.

س6 : أثارت أفكار ماركس جدلاً واسعاً بين أوساط علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد. أنقد أفكاره الاجتماعيّة.

س7 : ماهي أبرز أفكار رالف داهرندروف في النظرية الاجتماعية الصراعيّة المحدثة. بيّن اتجاهاتها العامة.

س8 : إستند داهرندروف في بلورة فكره الصراعي على أربع قواعد أساسية. حدّدها بنقاط مركزة.

س9 : أنقد الأفكار الاجتماعية للعالم داهرندروف من خلال نظريته الصراعية.

س10 : ما هي الاستنتاجات التي خرجت بها من قراءتك للاتجاه الصراعي؟

س11 : إشرح بالتفصيل نظرية ابن خلدون الصراعية؟